فلسفة سياسي

او سياسة فيلسوف

لعلي أدهم

العصر الحاضر من العصور التي اشتدت فيها العناية بدراسة السياسة والوقوف على مذاهبها المختلفة واتجاهاتها المتعارضة ، وقد كان هذا الاهتمام المتزايد نتيجة مرتقبة لذلك القلق العميق والاضطراب الداخلي المستولي على الروح الانسانية في هذا العصر ، وهناك الآن تجارب جديدة في الحكم واساليب مستحدثة تتحدى النظم القديمة التي ظلت زمناً فوق منازع الشك ، وقد رأيت من المناسب ان نقف في تلك الفترة على آراء زعيم خطير وسياسي منجذ مثل توماس ماساريك أول رؤساء الجمهورية التشيكوسلوفاكية التي عصفت بها الحوادث الاخيرة ، ويزيد في قيمة آرائه انها لم تستمد جميعها من خير الكتب ولم يتكون اكثرها في أبهاء المطالعة وحجرات الدراسة ، وانما نمت وتكونت في ضوء الحوادث الجسيمة ، وهي ثمرة تجربة طويلة وخبرة عريضة ، وسيتبين القارىء من معارض احاديثه انهُ لا ينتسب الى مدرسة ميكافلي المعروفة ، ولا يرى ذلك التفريق بين السياسة والاخلاق الفاصلة الذي يبلو العالم اليوم المر من ثمراته ، ويذهب بعض المفكرين السياسيين الى ان السياسة فرع من علم النفس لأننا اذا عرفنا الكثير من الحقائق عن الطبيعة الانسانية امكننا ان نستنبط النظم الملائمة لها ولكن ماساريك يرى ان الدراسة التاريخية لها المكانة الاولى لأن التاريخ عندهُ هو سجل الحقائق وهو زاخر بالحقائق النفسية لمن يعرف كيف يقرؤه ، واذا جهلنا التاريخ فاننا لا نستطيع ان نتبين الأثر العملي للدوافع والمحركات النفسية والتبس علينا تقدير نتائجها ، والنظرية السياسية التي تكتفي بالبحث عن الطبيعة الانسانية وتتخذها اساساً لاختيار القوانين والنظم تمنى في أغلب الحالات بالفشل والاخفاق وعلم السياسة انما هو ضرب من فلسفة التاريخ ، وكبار فلاسفة العالم السياسيين كانوا يستمدون فلسفتهم السياسية من التاريخ مثل هوبز ولوك وروسو وكارل ماركس . فالسياسة عند ماساريك يلزم أن تدرس في ضوء التاريخ وان تقوم على اساس تنظيم نتائج تجارب الحكم عند الحكومات والدول المختلفة ، وقد بسط جانباً من هذه الفلسفة في المحاورة الآتية وقد اخترتها من احاديثه مع صديقه الكاتب الكبير كارل كابك ، وقد استطاع كابك — قبل وفاته بقليل — ان يقدم

لنلمّ بهذه المحادثات خلاصة وافية لآراء زعيم بلاده في السياسة والاجتماع والفلسفة وان يرسم لنا خلالها صورة دقيقة الملامح، قوية الأثر لذلك الزعيم النابه والمفكر الممتاز : —

كابلك — هل تعتقد ان شريعة الحب تصلح في السياسة وفي الحياة الخاصة على السواء؟

ماساريك — نعم هي بلا ريب صالحة للحياة على اختلاف ألوانها وللاعمال والاشغال جميعها، وكل سياسي أمين راجح التفكير يعمل على تقوية الانسانية في داخل بلاده وفي خارجها ويجاهد لبلوغها مرتبة الكمال ، والسياسة كسائر الاعمال التي تصدر عن الانسان يلزم ان تكون خاضعة لنواميس الاخلاق ، واني اعرف ان هناك فريقاً من السياسيين يحاولون انفسهم عمليين وجد حصفاء فلا يحفلون بهذا المطلب ولا يتوخون تلك الغاية ولكن التجربة — ولست أتحدث في هذا المقام عن تجربتي الشخصية وحدها — ترينا ان السياسيين الاذكياء ذوي الافكار الثاقبة هم الأبلغ تأثيراً والاقدر على النهوض بالاعباء ومواجهة الحوادث وهم يؤدون لوطنهم وحكومتهم اعمالاً ينكل عن القيام بامثالها السياسة الذي يسمون انفسهم بالعمليين البارعين ومرور الزمن كفيل باظهار عجزهم وقصر نظرهم

كابلك — ولكن السياسة المثاليين قد يخطئهم التوفيق

ماساريك — في بعض الاوقات يصيبون وفي اوقات اخرى يخطئون، واذا كنت أتحدث عن الاخلاق في السياسة فاني واضع نصب عيني في اول الأمر الاساليب السياسية والمناورات الحزبية والاعمال الادارية على وجه الاجمال، وممارسة السياسة نفسها يجب ان تكون عملاً اخلاقيًّا والبرنامج السياسي يجب ان يكون متمشياً مع قواعد الاخلاق . وفي مستطاع كل انسان أن يضع برنامجاً سياسيًّا محترماً سامي المبادىء ولكن معرفة الاعمال الادارية شيء والعمل على مزاولتها في رفق واعتدال شيء آخر ، ومعرفة مصلحة الدولة ومنفعة الوطن في اوقات الازمات التحرجة والمواقف الفاصلة تختلف عن ذلك كل الاختلاف . ولذا تتحدث الناس في مناسبة ذلك عن مسائل السياسة العليا ويفرقون بين رجل الدولة والسياسي الحزبي ، والسياسة في هذا المعنى قائمة على أن يحسن السياسي ادراك الظرف المناسب الذي يخدم فيه امته خلال فيض التاريخ وتوالي الحوادث ومما يعين السياسي على ادراك ذلك وقوفه على تاريخ بلاده ومعرفته لحاضرها وعنايته بمستقبلها ولقد عالجت تلك الحياة وتمرست بصروفها وانا رجل سياسة كما قدمت لك وقد همتني المسائل السياسية منذ كنت غض الشباب، وانت تعلم اني في سنة ١٨٩١ كنت نائباً ثم تنازلت عن النيابة. وكان الدافع الحقيقي لذلك شعوري بعدم نضجي السياسي ، وذلك لاني عندما وقفت على سياسة فينا وعلاقتها باوربا وجدت أني رغم ما حصلت من علم غير متأهب تمام الأهبة، فبدأت من جديد دراستي السياسية في دقة وتمحيص وحاولت بان أجلو لنفسي مشكلة العصر ، وكان تاريخ أمتي في نظري جزءاً لا يتجزأ من تاريخ العالم ، ولم يقتصر عملي خلال تلك الفترة على تأليف الكتب.

كابك — كنت تعتقد في ذلك الوقت ان السياسة يجب ان تقوم على أسس علمية فهل لا تزال مستمسكاً بهذا الرأي بعد تجربتك الطويلة ؟

ماساريك — نعم ان السياسة علم ويجب ان تكون كذلك على الدوام . حقيقة ان جامعاتنا ليس بها أساتذة لتلقين السياسة ، والسياسة عندنا تدرس من حيث هي فرع من علم الاجتماع وناحية من نواحي القانون وجانب من جوانب الفلسفة، وقد خصصت لها في بعض الامم الاخرى مناصب وكثرت فيها المؤلفات واتسعت بحوثها ، وأمامنا مرحلة لا بد لنا من اجتيازها قبل ان نفصل على انشاء منصب استاذ لدراسة السياسة في جامعاتنا

كابك — وهل ترى ان البون شاسع بين السياسة العلمية والسياسة العملية البرلمانية ؟

ماساريك — نعم وكيف لا يكون كذلك ؟ ولكن يوجد كذلك خلاف بين آراء الجماهير التي تؤم الكنائس وآراء المستنيرين من رجال الدين ، وليس الفرق بين الرجل العادي والمحامي الذي درس القانون بأقل من ذلك ، ولكني اذا كنت أقول بالسياسة النظرية العلمية فاني لا أنسى الفرق بين العملي والنظري ، ومما يسترعي النظر في تقدمنا السياسي ان بعض رؤساء الحكومة وقادة الاحزاب وأعضاء البرلمان لم يتلقوا تعليماً جامعيًّا ولكنهم برغم ذلك قد تزعموا الاحزاب وألفيت اليهم مقاليد الأمور وإني اعتقد ان السياسة العليا تستلزم اعداداً نظريًّا ولكني أصرح مع ذلك ان حزمة من الاجازات العلمية لا تغني عن المواهب الطبيعية، ولا تنس كذلك الناحية الاخلاقية لان الاطلاع والعلم واجتياز الامتحانات والحصول على الاجازات والالقاب والدرجات ليس دليلاً على الشرف والشجاعة والاعتدال

كابك — اسمح لي بسؤال لا أريد به شخصك ، عندما تتكلم عن السياسة من حيث هي علم ما هي علاقة السياسة بالفلسفة ؟

ماساريك — تريد ان يكون سؤالك غير شخصي ولكنك في هذا السؤال شخصي الى أقصى حدّ لأنك تريد ان تقول أنني قد انتقلت من منصب أستاذ في الجامعة الى مسند رآسة الجمهورية وسأحاول في الاجابة عن سؤالك ان أتجرد من شخصيتي . ولعلك تذكر أفلاطون وارسطو وسنت اغسطين وتوما الاكويني وأمثالهم ، ولقد كان الفلاسفة على الدوام معنيين بالمسائل الفلسفية ، والنظريات السياسية هي صورة من صور التفكير الفلسفي وقد كان ذلك نتيجة لتلك العلاقة الأكيدة بين الاخلاق والسياسات ، ولقد كانت الاخلاق على الدوام جزءا من الفلسفة وفي العصور الحديثة استقل عن الفلسفة علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وهما علمان سياسيان ، وكل علم يعتمد في ناحية من نواحيه على الفلسفة ويستند من ناحية اخرى الى الحياة العملية

وللفلسفة علاقة مباشرة بالاخلاق لأنها تحاول ان تكوّن صورة عامّة للحياة والدنيا ، والحكومة في العصر الحاضر تستغرق جميع فروع الادارة الاجتماعية فهي من ناحية عملية

تجاهد وراء ما تقصد اليه الفلسفة. وعلى هذا الاساس يجب ان نفهم ما رمى اليه افلاطون الذي اراد ان يكون الحكام فلاسفة ، والسياسي الحديث يلزم ان يكون قوي الناقدة غزير العلم صادق الحكمة . والسياسي الذي يتصدى للقيادة يلزم ان يكون خبيراً بالرجال ملمًّا باسرار الزعامة وما معنى الزعامة اذا اعجزه النفاذ الى قلوب الناس والولوج الى سرائرهم ؟ ولا تنس ان الفلاسفة او العلماء قد يتورطون في الاخطاء . واكرر ان الكتب او الاجازات ليست كافية لأن الرجل السياسي في حاجة الى التجربة والبراعة وحدها ليست مجدية

كابك — اراك تؤكد العلاقة بين التاريخ والسياسة

ماساريك — نعم وانت تعرف اهتمامي بمادة التاريخ ، ولقد كنت على الدوام معنيًّا بالدروس التي تفيدها سياستنا من التاريخ ، ولست ادعي اني مؤرخ ولكن عقيدتي الخاصة كانت تستحثني لتبين معنى الدنيا ولخوى اعمالنا وكم اجهدت فكري في ذلك ، وانا اقل المعرفة من المؤرخين ولكني في الوقت نفسه اراقب سير الحوادث في بلادي وفي غيرها وفي مدى يجاوز نصف قرن يستطيع الانسان ان يرى كثيراً وان تتسع امامهُ مناحي التفكير وتتكاثر موضوعاتهُ ، وقد طالما رددت ان سياستنا يجب ان تقوم على اساس عالمي وان يكون اتجاهنا دوليًّا

كابك — وهل ترى ان السياسة الخارجية أجلُّ شأناً من السياسة الداخلية

ماساريك — في بعض الاوقات ترجح كفة السياسة الداخلية ولكن في المدى المتطاول ستلتقي السياسات الداخلية في الامم والسياسات الخارجية ، وسياستنا تفرض علينا ان نكون يقظين لما يحدث حولنا وتحتم علينا مراقبة الاتجاهات والتيارات . واما تصور السياسات العالمية تصوراً عمليًّا فهي يلزم ان تقوم على دراسة الدنيا وتاريخها وهي تقتضي ان نكون واقفين على ما يحدث حولنا وما يتصل بشؤوننا ولا يهولنك ذلك فاني لا أوصي بالابتداء من عهد آدم ولا اقول بالانغماس في تاريخ الدنيا بأسره اذ يكفيني تاريخ اوربا وذلك الجزء من آسيا وافريقية الذي ارتبط تاريخه بتاريخها

كابك — الحدود التي ذكرتها هي على وجه التقريب حدود الجنس الابيض

ماساريك — نعم على وجه التقريب ولنترك آسيا الآسيوية ، وآسيا الأوربية أو اوربا الآسيوية . إن جميع الامم القائمة على شواطىء البحر المتوسط قد امتزجت ثقافتها وكثرت العلاقات بينها وفي هذا الجزء من الكرة الارضية بدأ التوفيق بين مختلف المذاهب واللغات والسكان

ومن المظاهر الباهرة انهُ في ذلك الجزء نهضت الحضارات من أقدم الازمنة وجاء تباعاً البابليون والاشوريون والايرانيون والدول المصرية ، وقد انقسم الاغريق شيعاً واحزاباً ولكن الاثينيين حاولوا ان يوحدوا الأمة الهيلينية بعد ان نجحوا في رد غارة الفرس ، وبظهور الاسكندر جاءت الى عالم الوجود امبراطورية ضخمة تضم اليونان ومصر وجميع الاجزاء التي كانت معروفة في آسيا لذلك العهد . وبعد عهد الاسكندر انهارت دولته وتصدعت أركانها ولكنها لم

تتحطم ثقافيًا، وقد غزت الثقافة اليونانية روما وأوغلت في الغرب، وقامت بعد الاسكندر دولة الرومان وقد شملت اليونان ومصر وشمال افريقية واستولت في الشرق على الولايات التي ضمها الاسكندر الى امبراطوريته وانتشرت في الغرب إيبريا وبلاد الـلت والالمان، ثم انشطرت الدولة الرومانية شطرين وقد بقي القسم الشرقي في بيزانطة بعد انهيار القسم الغربي، ثم قامت في الغرب دول عظيمة منها دولة الفرانك والدولة الرومانية المقدسة ودولة أسبانيا والنمسا

كابك — ودولة الاسلام وحاولة النورمنديين اخضاع شمال اوربا

ماماريك — ثم وفي العصور الحديثة نهض نابليون وظهرت قوة الانكليز والولايات المتحدة والروسيا وتمت الوحدة الايطالية واصبحت ايطاليا تحاول بسط سيادتها على البحر المتوسط

وهذا الدافع الى طلب القوة السياسية ظاهر كذلك في تاريخ الولايات الصغيرة فدولتنا البوهيمية القديمة كانت الى حد ما قوة عالمية ومن الجائز ان يقال مثل ذلك عن بولندة وبلاد الصرب والبلغار، ففي كل زمان وبكل مكان نلتقي بهذا الدافع الذي يسوق الأمم الى التوسع خارج نطاقها والى أن تضم دولاً اخرى. ولقد كان للعوامل الجغرافية اثر كبير في نشوء الدول العظيمة مثل الجبال والانهار الكبيرة كالنيل والدانوب والراين وعلى الاخص البحر، وفي تاريخ الغرب كان للبحر المتوسط شأن سياسي بارز ونفس اسمه يدل على ما كان له من أثر في ربط الامم القائمة على شواطئه وبخاصة الاغريق والرومان والفينيقيين. ولم تتقدم الملاحة في المحيط الاطلسي الا في العصور الحديثة وهو الصلة بين اميركا واوربا وقد حلت منزلة المحيط الباسيفيكي وهو اليوم الصلة بين اميركا والشرق الاقصى وبذلك اصبحت الصين واليابان والهند مرتبطة باميركا واوربا

ولقد نشأت تلك الدول العظيمة مدفوعة بدافع الرغبة في التملك وحب الغزو ولكن التفاعل المتبادل بين الامم الغالبة والامم المغلوبة كان لازماً، ومن ثم نشأت الروابط الثقافية وبذلك بلغت الروح مالم يبلغه حد السيف، ولقد كان اليونان من اكبر دعاة الثقافة وناشري لوائها وفي عهد الاسكندر وبعده صارت اللغة اليونانية لغة عالمية في أوربا وآسيا وافريقية، واذا تأملنا الحركة التاريخية وجدنا ان الأمم لا تستطيع ان تعيش في عزلة، والجنس البشري منذ أقدم الأزمنة يتجه تدريجيًا في سبيل الوحدة وتاريخ الفتوحات والثقافات والدول أحوالي يرينا ذلك في صورة واضحة ولقد كانت الحرب الكبرى هي المرحلة الأخيرة في سبيل هذا التقدم

والمسألة الآن هي هل يتم تنظيم قوى الحكومات والأمم بالغزو والاخضاع او بالسلام والتحالف والاتفاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية؟ لقد وضعت عصبة الأمم بعد الحرب الكبرى برنامج التنظيم السلمي للدنيا وقامت حركات كبيرة وعقدت اجتماعات جمة لتقريب العلاقات بين الامم ويجوز لنا ان نقول أننا نقف الآن على ابواب التنظيم العالمي الصادق. ولقد أطلت عليك الحديث ولكن نظرة الى الماضي تزودنا بالكثير مما ينفع في الحاضر والمستقبل